سلسلة تفريغات شبكة بينونة

دُرُوسٌ وعِبَرٌ مِنْ سِيرَةِ إمامِ دارِ الهِجرَةِ

رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى

اشتُهر بعلمه الغزير وقوة حفظه للحديث النبوي وتثبُّته فيه، وكان معروفاً بالصبر ... ة والوقار والأخلاق الحسنة، وقد أثنى عليه كثيرٌ من ... هم الإمام الشافعي بقوله: «إذا ذُكر العلماء فمالك النجم، ومالك حجة الله على خلقه بعد التابعين».

الشَّيخ

د. محمَّد بن غيث غيث

من هنا باقي التفريغات

قام به فريق التفريغ في شبكة بينونة للعلوم الشرعية

@BaynoonanetUAE @Baynoonanet www.baynoona.net

دروس وعبرة من

سيرة إمام دار الهجرة

دروس وعبر من

سيرة إمام دار الهجرة

الشيخ
د. محمد بن غيث غيث

شبكة بينونة للعلوم الشرعية

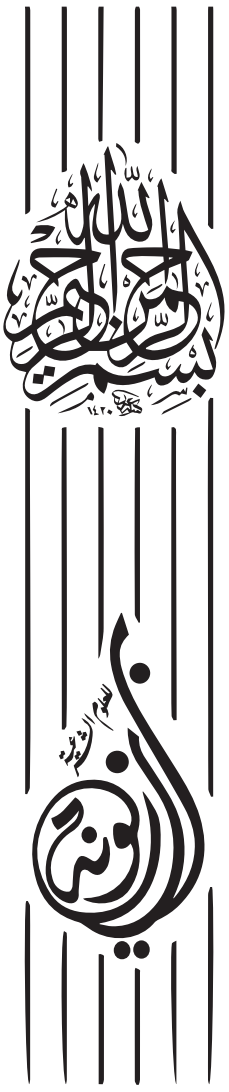

حقوق الطبع محفوظة

للمزيد من الكتب

@BaynoonanetUAE @Baynoonanet
www.baynoona.net

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الْحَمْدَ لِلهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعلىٰ آله وصحبه وَسَلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أما بعد...

أيها الأفاضل:

بادئَ ذي بدء أتقدَّم بالشكر العظيم لربنا الجليل أن هدانا لهذا الدين العظيم، ووفَّقنا لصراطه المستقيم، وأنعم علينا بالنعم والخير المبين.

ثم أُثنِّي بالشكر للشيخ المبارك صاحب السمو الشيخ سعود بن صقر بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلىٰ، حاكم هذه الإمارة المباركة الأصيلة علىٰ رعايته لهذه المناشط العظيمة، والجائزة الكريمة، واهتمامه بالخير الذي هو أساسُ كل نعمة، وسببُ درءِ كل محنة، لا سيما العلم الذي يربط الخلف بالسلف، وينشرُ السنَّة في الناس، ويُبيِّن منهج الاعتدال والسنَّة، فجزاهُ الله كل خير.

ثم أُثلِّث بالشكر علىٰ القائمين علىٰ هذه المؤسسة المباركة الباذلة للجهود الطيبة، الحريصين علىٰ كل خير وعلىٰ كل نفعٍ لهذا المجتمع المبارك.

مع الإمام الثاني في المرتبة والزمن، مع الإمامِ مالك

وليُعلَم أن مدارسةَ سيرةَ الأئمة ومعرفةَ فضائلهم مما يُحيي القلوب، ويرفعُ الهمَّة، ويُقوِّم المسير، ويضبط الطريقة، ولا يخفىٰ علىٰ أحد أننا في زمن فتنٍ وغربة، وإدبارٍ من الدين وخَفاءٍ من السنَّة في نُدرة من العلماء، وضَعفٍ من التأصيل، مع كثرة الصوارف والأهواء.

وقد كان الذهبي في زمانه يتفجَّع بقوله: « **فيا مسلمين، بالله تعالوا نبكي علىٰ الكتاب والسنَّة وأهلها، وقولوا: اللهم أجرنا في مصيبتنا فقد عاد الإسلام والسنَّة غريبين**».

وكان يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فعلىٰ علم الحديث وعلمائه فليبكي من كان باكيًا، فقد عاد الإسلام المحضُ غريبًا كما بدأ، فليسعَ امرؤٌ في فكاك رقبته من النار**».

وقال قبله الإمام العكبري ابنُ بطة صاحب الإبانة: «**فإنا قد أصبحنا في زمانٍ قلَّ من يسلم له فيه دينه، والنجاة فيه متعذِّرة مستصعبة، إلا من عصمه الله وأحياه بالعلم**».

وعلماء المسلمين كما قال الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**كل أمةٍ قبل مبعث محمدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعلماؤها شرارها إلا المسلمين فإن علماءهم خيارهم، فإنهم خلفاء الرسول في أمته، والمحيون لما مات من سنَّته، بهم قام الكتاب وبه قاموا، وبه نطق الكتاب وبه نطقوا**»، فمعرفةُ سيرةُ العلماء وطريقتهم وهديهم وأخلاقهم منَ العلم الذي يُنير الطريق، ويُقوِّم الأخلاق ويربطُ الخلف بالسلف.

ولذلك قال ابن وضَّاح: **«سمعتُ أبا جعفر الأيلي يقول: سمعتُ ابن وهب ما لا أُحصي يقول: لولا أن الله أنقذني بمالكٍ والليث لضللت»**، وفي روايةٍ: **«لولا أني لقيت مالكًا لضللت»**.

فمعرفةُ هذه المعالم عصمة وهداية، ولذلك لما كان الأمرُ كذلك جاءت هذه المحاضرات وهذا الاختيار الموفَّق من الأخوة الأكارم للتعريف بأعلامٍ من أعلام الأمة، طَبَّق ذِكرهم البلاد والأمصار، وسار علمهم مسير الشمس في الأقطار، ومن أنفع العلوم: عيشُ سير السالفين والاغتناء بهم في الدين، فإن الحي لا تُؤمن عليه الفتنة، وقد قال الشافعي الإمام: **«إذا ذُكرَ العلماء فمالكٌ النجم»**، والنجم يُهتدَىٰ به.

وهذه وقفات أيها الفاضل ودروسٌ ودرر مع هذا العلَم نستبينُ من خلالها شيئًا من سيرته وهديه وعلمه مما يُبصِّر المسلم بمنزلته، ويُعرِّفُ هدي العلماء من مثال هديه، وحال القرون المفضَّلة في العلم والاتباع من طريقته،

الوقفة الأولى: نَسبهُ ومنزلته وثناءُ العلماء عليه

قال الذهبي في السير: **«هو شيخُ الإسلام، حُجَّة الأمة، إمام دار الهجرة، أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الحميري ثم الأصبحي المدني، وأمه عاليةُ بنت شريك الأسدية»**.

مولده علىٰ الأصح: في سنة ثلاثٍ وتسعين عامَ موتِ أنس خادم رسول الله ﷺ، ونشأ في صولٍ ورفاهية وتجمُّل، وطلب العلم وهو حدث بُعَيْدَ موت القاسم وسالم. قال ابن كثير: **«إمامُ دار الهجرة في زمانه»**.

روىٰ عن غير واحدٍ من التابعين وحدَّث عنه خلقٌ من الأئمة، منهم: السفيانان، وشعبة، وابن المبارك، والأوزاعي، وابن مهدي، وابن جُريج، والليث، والشافعي، والزهري شيخه، أي روىٰ عنه أيضًا، ويحيىٰ بن سعيد الأنصاري وهو شيخه، ويحيىٰ بن سعيدٍ القطَّان، ويحيىٰ بن يحيىٰ الأندلسي، ويحيىٰ بن يحيىٰ النيسابوري.

قال البخاري: **«أصحُّ الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر»**.

وقال الشافعي: **«من أراد الحديث فهو عيالٌ علىٰ مالك»**.

وفي السير عن ابن عُيينة قال: **«مالكٌ عالِمُ أهل الحجاز، وهو حُجَّة زمانه»**.

وقال الشافعي: **«إذا ذُكرَ العلماء فمالكٌ النجم، وما أحدٌ أمنَّ عليَّ من مالك بن أنس»**.

وقال مالك بن أنس: **«معلَّمي وعنه أخذت العلم»**.

وقال يحيىٰ بن معين: **«كان مالكٌ من حُجَج الله علىٰ خلقه»**.

وقال الإمام النسائي: **«ما أحدٌ عندي بعد التابعين أنبل من مالك، ولا أحدٌ آمن علىٰ الحديثِ منه»**.

وقال أبو زرعة الدمشقي: **«سمعت أحمد بن حنبل يُسأل عن سفيان ومالك إذا اختلفا في الرواية؟ فقال: مالكٌ أكبر في قلبي، قلت: فمالكٌ والأوزاعي إذا اختلفا؟ قال: مالكٌ أحبُّ إليَّ وإن كان الأوزاعي من الأئمة»**.

وقال الذهبي في السير: **«ولم يكن بالمدينة عالمٌ من بعد التابعين يُشبهُ مالكًا في العلم والفقه والجلالة والحفظ، فقد كان بها بعض الصحابة مثل سعيد بن المسيِّب، والفقهاء السبعة، والقاسم، وسالم، وعكرمة، ونافع، وطبقتهم، ثم زيد**

بن أسلم، وابن شهاب، وأبي الزناد، ويحيىٰ بن سعيد، وصفوان بن سليم، وربيعة، وطبقتهم، فلما تفانوا اشتُهِر ذِكر مالك بها، وابن ابي ذئب، وعبد العزيز بن ماشون، وسليمان بن بلال، وفليح بن سليمان، والداودي وأقرانهم، فكان مالكٌ هو المُقدَّم فيهم علىٰ الإطلاق، والذي تُضرَب إليه آباط الإبل من الآفاق رَحِمَهُ ٱللَّهُ**».**

وقال: **«وقد كان مالكٌ إمامًا في نقد الرجال، حافظًا مُجوِّدًا متقنًا».**

وقال: **«ورُوِيَ عن الأوزاعي أنه كان إذا ذكر مالكًا يقول: عالِم العلماء ومفتي الحرمين».**

وعن بقية أنه قال: **«ما بقي علىٰ وجه الأرض أعلم بسنَّةٍ ماضيةٍ منك يا مالك».**

وذكر الإمامُ أحمد مالكًا فقدَّمه علىٰ الأوزاعي والثوري والليث وحمَّاد والحَكَم في العلم، وقال: **«هو إمامٌ في الحديث وفي الفقه».**

وقال ابن القطَّان: **«هو إمامٌ يُقتدىٰ به».**

وقال أسد بن فرات: **«إذا أردت الله والدار الآخرة فعليك بمالك».**

وعن مالك بن أنس قال: **«قدِم علينا الزهري فأتيناه ومعنا ربيعة فحدَّثنا نيِّفًا وأربعين حديثًا، ثم أتيناه الغد فقال: انظروا كتابًا حتىٰ أُحدِّثكم منه، أرأيتم ما حدَّثتكم به أمس أيُّ شيءٍ في أيديكم منه؟ قال: فقال له ربيعة: ها هنا من يردُّ عليك ما حدَّثت به أمس، قال: ومَن هو؟ قال: ابن أبي عامر، قال: هات، قال: فحدَّثته بأربعين حديثًا منها، فقال الزهري: ما كنت أرىٰ أنه بقي أحدٌ يحفظ هذا غيري».**

وعن ابن مهدي قال: **«ما رأيت أحدًا أهيب ولا أتمَّ عقلًا من مالك ولا أشدَّ تقوىٰ».**

وقال الذهبي: **«كان مالك يتحفَّظُ من الياء والتاء في حديث رسول الله**

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **قد كنت أفردت ترجمة مالك في جزءٍ وطوَّلتها في تاريخي الكبير، أي تاريخ الإسلام للذهبي».**

● **وقد اتفق لمالك مناقب ما علمتها اجتمعت لغيره -يقول الذهبي-:**

أحدها: طول العمر، وعلو الرواية.

وثانيها: الذهن الثاقب والفهم وسعة العلم.

وثالثتها: اتفاق الأئمة علىٰ أنه حجة صحيح الرواية.

ورابعتها: تجمعه علىٰ دينه وعدالته واتباعه السنن.

وخامستها: تَقدُّمه في الفقه والفتوىٰ وصحَّةُ قواعده.

وقال ابن كثير: **«ومناقبه وفضائله كثيرةٌ جدًّا، وثناء الأئمة عليه أكثر من أن يُحصىٰ»،**

قال أبو مصعب: **«سمعت مالكًا يقول: ما أفتيت حتىٰ شهِد لي سبعون أني أهلٌ لذلك»،** أي سبعون من الأئمة.

قال الذهبي: **«قَدْ كَانَ هَذَا الْإِمَامُ مِنَ الْكُبَرَاءِ السُّعَدَاءِ، وَالسَّادَةِ الْعُلَمَاءِ، ذَا حِشْمَةٍ وَتَجَمُّلٍ، وَعَبِيدٍ، وَدَارٍ فَاخِرَةٍ، وَنِعْمَةٍ ظَاهِرَةٍ، وَرِفْعَةٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. كَانَ يَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ، وَيَأْكُلُ طَيِّبًا، وَيَعْمَلُ صَالِحًا. وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ ابْنِ الْمُبَارَكِ فِيهِ:**

صَمُوتٌ إِذَا مَا الصَّمْتُ زَيَّنَ أَهْلَهُ وَفَتَّاقُ أَبْكَارِ الْكَلَامِ الْمُخَتَّمِ

وَعَىٰ مَا وَعَىٰ الْقُرْآنُ مِنْ كُلِّ حِكْمَةٍ وَسِيطَتْ لَهُ الْآدَابُ بِاللَّحْمِ وَالدَّمِ

وقال الذهبي: **«وَبِكُلِّ حَالٍ: فَإِلَىٰ فِقْهِ مَالِكٍ الْمُنْتَهَىٰ، فَعَامَّةُ آرَائِهِ مُسَدَّدَةٌ، وَلَو لَمْ يَكُنْ لَهُ إِلاَّ حَسمُ مَادَةِ الحِيَلِ، وَمُرَاعَاةُ المَقَاصِدِ، لَكَفَاهُ».**

الوقفة الثانية: اتباعه للسنَّة وتعظيمه للسنَّة

قال أبو داود السجستاني: «**سمعتُ أحمد بن حنبل يقول: مالك بن أنس أتبعُ من سفيان**» وسفيان هو الثوري الذي قال عنه إدريس: «**ما رأيتُ في الكوفة رجلًا أتبع للسنَّة ولا أودُّ أني في مسلاخه، من سفيان الثوري -ومع ذلك مالك أتبع للسنَّة منه- وكان إذا أراد التحديث تنظَّف وتطيَّب ولبس أحسن ثيابه**».

قال قُتيبة: «**كنا إذا دخلنا علىٰ مالك خرج إلينا مزيَّنًا مكحَّلًا مطيِّبًا، قد لبس من أحسن ثيابهِ وتصدَّر الحلقة**».

وقيل له: لما لم تأخذ عن عمرو بن دينار؟ -وعمرو بن دينار من الأئمة الكبار- قال: «**أتيته فوجدته يأخذون عنه قيامًا فأجللت حديث رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن آخذه قيامًا**».

وقال الوليد بن مسلم: «كان مالكٌ رَحِمَهُ اللهُ كثيرًا ما يتمثَّل بقول الشاعر:

وَخَيْرُ أُمُور الدين ما كَانَ سُنَّةً ... وَشَرُّ الأُمُورِ الـمُحْدَثَاتُ البَدَّائِعُ

وقال مالك: «**والتسليمُ للسنن لا تُعارض برأي -أي يجب علىٰ المسلم أن يُسلِّم للسنن- ولا تُدافع بقياس، وما تَأوَّله منها السلف الصالح تأوَّلناه، وما عملوا به عملناه، وما تركوه تركناه، ويَسَعُنا أن نُمسك عما أمسكوا، ونتبعهم فيما بيَّنوا، ونقتدي بهم فيما استنبطوه ورأوه في الحوادث، ولا نخرجُ من جماعتهم فيما اختلفوا فيه أو في تأويله**» هذا أصلٌ عظيم في الاهتداء.

وعن مطرِّف بن عبد الله قال: «**سمعتُ مالكًا يقول: سنَّ رسول الله** صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وولاةُ الأمر بعده سننًا، الأخذ بها اتباعٌ لكتاب الله، واستكمالٌ لطاعة الله، وقوةٌ علىٰ دين الله، ليس لأحدٍ تغيرها ولا تبديلها، ولا النظر في شيءٍ خالفها، مَن اهتدىٰ بها فهو مهتد، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن تركها اتبع غير سبيل المؤمنين وولَّاه الله ما تولَّىٰ وأصلاه جهنَّم وساءت مصيرًا».

وكان يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ حقًّا علىٰ من طلب العلم أن يكون له وقار وسكينة وخشية، وأن يكون متبعًا لأثر من مضىٰ». هذا سمت أهل العلم.

ومما يدل علىٰ ذلك: ما قاله ابن عُيينة قال: «سمعت أنس بن مالك وقد أتاه رجلٌ فقال: يا أبا عبد الله، من أين أُحرِم؟ فقال: من ذي الحُليفة من حيث أحرم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: إني أُريد أن أُحرِم من المسجد من عند قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: لا تفعل، إني أخشىٰ عليك الفتنة، قال: وأيُّ فتنةٍ هذه؟ إنما هي أميالٌ أزيدها، قال: وأيُّ فتنةٍ أعظم من أن ترىٰ أنك سبقت إلىٰ فضيلةٍ قصَّر عنها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟! إني سمعت الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣]».

قال ابن وهب: «كنا عند مالك فذُكرت السنَّة، فقال مالك: السنَّة سفينة نوح، مَن ركبها نجا، ومن تخلَّف عنها غرِق».

وكان يقول: «كل أحدٍ يؤخذ من قوله ويُترك إلا صاحب هذا القبر»، يعني النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وقال معن بن عيسىٰ: «سمعت مالكًا يقول: إنما أنا بشر أُخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي فكل ما وافق الكتاب والسنَّة فخذوا به، وما خالف فاتركوه».

قال أبو طالب المكِّي: «كان مالك أبعد الناس من مذهب المتكلمين، وألزمهم لسنَّة السالفين من الصحابة والتابعين».

وقال ابن ماشون: «**سمعتُ مالكًا يقول: من أحدث في هذه الأمة شيئًا لم يكن عليه سلفها فقد زعم أن محمدًا** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **خان الرسالة، قال: لأن الله يقول:** ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣] **فما لم يكن يومئذٍ دينًا فلن يكون اليوم دينًا**».

والآثار عن مالك في هذا الباب كثيرةٌ جدًّا، فيا أيها المنتسبون له من أهل السنَّة الزموا هديه، وعلىٰ هذا كان العلماء والأئمة -رَحِمَهُمْ اللهُ-، كانوا يتبعون ولا يبتدعون، ويقتدون ولا يبتدون،

قال سعيد بن جُبير: «**ما لم يعرفه البدريون فليس من الدين**».

وقال ابن سيرين: «**كانوا يرونه علىٰ الطريق ما دام علىٰ الأثر**».

وقال الأوزاعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «**عليكَ بآثار من سلف وإن رفضك الناس**».

قد تُتَّهم بالتشدُّد وغير ذلك من الألقاب السيئة، «**عَلَيْكَ بِآثارِ مَنْ سَلَفَ وإِنْ رَفَضَكَ النَّاسُ، وَإِيَّاكَ وآراءَ الرِّجَالِ، وَإِنْ زَخْرَفُوهُ لَكَ بالقَوْلِ**» فكل قولٍ مزخرف إذا لم يكن عليه آثارةٌ من اتباعٍ للسلف لا تغتر به، عَلَيْكَ بِآثارِ مَنْ سَلَفَ وإِنْ رَفَضَكَ النَّاسُ واحذر ما زُخرف، قال: «**فإن القول ينجلي وأنت علىٰ صراطٍ مستقيم**». وكان يقول: «**ندورُ مع السنَّة حيث دارت**».

قال ابن كثير في كتابه العظيم البداية والنهاية: «**أما أهلُ السنَّة فليس لهم مذهبٌ إلا اتباعُ الحق يدورون معه كيفما دار**».

الوقفة الثالثة: عقيدته رَحِمَهُ ٱللَّهُ

الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيرهُ من أئمة السلف أهلُ أثر واتباع، فاعتقادهم ما نطقَ به الكتاب والسنَّة وكان عليه الصحابة، فهم مجمعونَ علىٰ إثباتِ الصفات لله تعالىٰ علىٰ وجهها من غير تحريف ولا تكييف، ومن غير تعطيل ولا تمثيل، مع ردِّهم للبِدَع والمحدثات، فهذا الباب باب اتباع وتسليم للأثر.

قال مالك: «**كان وهب بن كَيْسان يقعد إلينا ولا يقعد حتىٰ يقول لنا: اعلموا لا يصلح آخر هذا الأمر إلا ما أصلح أوله**»، وهذا فيه تربية عظيمة، وهذا كان دأب السلف.

قال الحربي عن الإمام أحمد: «**هو ألقىٰ في قلوبنا منذ كنا غِلمانًا اتباع أحاديث النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **وأقاويل الصحابة والاقتداء بالتابعين**» وهذا في الحقيقة هو أصل الهداية في الدين.

قال ابن تيمية: «**الأئمة المشهورين كلهم يُثبتون الصفات لله تعالىٰ، ويقولون: إن القرآنَ كلام الله ليس بمخلوق، ويقولون: إن الله يُرَىٰ في الآخرة، هذا مذهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان من أهلِ البيت وغيرهم، قال: وهذا مذهب الأئمة المتبوعين مثل: مالك بن أنس، والثوري، والليث بن سعد، والأوزاعي، وأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق**».

● **وأما الآثارُ الخاصة في هذا الباب عن الإمام فكثيرةٌ جدًّا،**

فعن ابنِ وهب قال: «**قال مالكٌ: الناس ينظرون إلىٰ الله** عَزَّوَجَلَّ **يوم القيامة بأعينهم**».

وعن جعفر بن عبد الله قال: «**كنا عند مالك فجاءه رجل فقال: يا أبا عبد الله:** ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥] **كيف استوىٰ؟ قال: فما وَجدَ مالكٌ من شيءٍ ما وَجدَ من مسألته، فنظر إلىٰ الأرض وجعل ينكت بعودٍ في يده حتىٰ علاه الرحضاء -أي العرق- ثم رفع رأسه ورمىٰ بالعود، ثم قال: الكيف منه غير معقول**» كيفية الصفات غير معقولة، لأن العقول لا تحيط بها، أنتَ ترَىٰ الشمس ولكنك لا تُحيط به، الله لا يُحيطون به علمًا، لا تُدرَك كيفية صفاته، إنما نؤمن بما أخبر به عن نفسه علىٰ مرادهِ ومراد رسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

قال: «**الكيف منه غير معقول، والاستواء منه غيرُ مجهول -معلوم الاستواء وهو العلو والارتفاع- والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة -أي عن الكيفية-، وأظنُّك صاحبَ بدعة فأمر به فأُخرِج**».

وعن عبد الله بن نافع قال: «**قال مالكٌ: الله في السماء وعلمه في كل مكان لا يخلو منه شيء**»، أي لا يخفىٰ عن علم الله شيء.

وعن ابن أبي أويس قال: «**سمعت مالكًا يقول: القرآن كلام الله وكلام الله منه، وليس من الله شيءٌ مخلوق**».

وقال القاضي عِياض في سيرةِ مالك: «**قال ابن نافع وأشهب وأحدهما يزيد علىٰ الآخر، قلت: يا أبا عبد الله:** ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣].

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢] من النضارة. ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٣] من النظر.

ينظرون إلىٰ الله؟ قال: نعم بأعينهم هاتين، قلتُ: فإن قومًا يقولون: ناضرةٌ يعني منتظرةٌ إلىٰ الثواب؟ قال مالك: بل تنظر إلىٰ الله، أما سمعت قول موسىٰ: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف:١٤٣] أتراه سأل محالًا؟، لو أن الله لا يُرَىٰ كيف موسىٰ يسأل المحال؟! هذا لا يجوز علىٰ الأنبياء. ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف:١٤٣] ولم يقل: لا أُرىٰ، قال مالك: أتراه سأل محالًا؟ قال الله: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ في الدنيا، لأنها دار فناء، فإذا ساروا إلىٰ دار البقاء نظروا بما يبقىٰ إلىٰ ما يبقىٰ».

ولذلك قال العلماء: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ [الأعراف:١٤٣] إذا جازَ أن يتجلَّىٰ أليس من باب أولىٰ أن يتجلَّىٰ لعباده المؤمنين في جنَّته ودار قيامته؟!

قال الله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥] هذا عن الكفار، أي لما حَجَبَ الكفار في غضبه دلَّ علىٰ أن المؤمنين يرونه في رضاه وإلا لو كان الكل محجوبًا لما احتاج أن يستثني الكفار.

وقال القاضي: **«وقال غير واحد عن مالك: الإيمان قولٌ وعمل، يزيد وينقص، وبعضه أفضل من بعض».**

وقال ابنُ وهب: **«سمعت مالكًا يقول: ليس هذا الجدل من الدين في شيء».**

وقال الشافعي: **«كان مالكٌ إذا جاءه بعض أهل الأهواء قال: أما إني علىٰ بيِّنةٍ من ديني، أما أنت فشاك، اذهب إلىٰ شاكٍ مثلك فخاصمه».**

وكان يقول: **«أكلما جاءنا رجلٌ أجدل من رجل تركنا ما نزل به جبريل علىٰ محمدٍ ﷺ لجدله؟!».**

الوقفةُ الرابعة:

عن ابن وهب قال: **«قال مالكٌ: «لقد سمعت من ابنِ شهاب أحاديث كثيرة ما حدَّثت بها قط ولا أُحدِّث بها»**، وفي روايةٍ: **«لقد سمعت من ابن شهاب أحاديث كثيرة ما حدَّثت بها قط ولا أُحدِّث بها، قال: لا يكون إمامًا من حدَّث بكل ما سمع»**.

وقال ابن وهب: **«سمعت مالكًا يقول: اعلم أنه فسادٌ عظيم أن يتكلَّمَ الإنسان بكل ما يسمع»** هذا أصل في التربية كبير خاصةً لأهل العلم ومن يسلك سبيلهم.

قال الشاطبي: **«ومن هذا يُعلَم أنه ليس كل ما يُعلَم مما هو حقٌّ يُطلَب نشره وإن كان من علم الشريعة ومما يُفيد علمًا بالأحكام»**، أي ليس كل ما يُعرَف يُنشَر، يقول: **«بل ذلك ينقسم، فمنه ما هو مطلوب النشر وهو غالب علم الشريعة، ومنه ما لا يُطلَب نشره بإطلاق أو لا يُطلَب نشره بالنسبة إلىٰ حال أو وقت أو شخص»**، لأن بعض الناس إذا حدَّثته بحديث عقله لا يُدركه قد يُفتَن، فد لا يفهمه علىٰ وجهه، ويضرُّه في دينه.

قال: **«ومن ذلك ألا يُذكر للمبتدئ من العلم ما هو حظ المنتهي، بل يُربِّي بصغار العلم قبل كباره، قال: وقد فرض العلماء مسائل مما لا تجوز الفُتيا بها وإن كانت صحيحةً في نظر الفقه»**.

قال:**« من ذلك سؤال العوام عن علل مسائل الفقه وحِكَم التشريعات وإن كان لها عللٌ صحيحة، وحِكَمٌ مستقيمة»**، لأن بعض الناس بدأ ينشر لا تستمع

إلا بما يوافق عقلك، لا تُقاد بالأثر، إنما أنت عقل قد مُيِّزت، لك عقلٌ قد مُيِّزت به، هذا زلل في الاتباع، العقول تتفاوت، والفهوم تتفاوت، وإذا أُرجعت الأمور للعقول ضاع الناس وضاع الدين.

قال: «**ولذلك أنكرت عائشة علىٰ من قالت: لما تقضي الحائض الصوم ولا تقضي الصلاة؟ فقالت لها: أَحَرُورِيَّةٌ أَنْتِ؟**» وقد ضرب عمر بن الخطاب صديقًا وشرَّد به لما كان كثير السؤال عن أشياء من علوم القرآن لا يتعلق بها عمل، وربما أوقع خيالًا وفتنةً وإن كان صحيحًا وتلا قوله تعالىٰ: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس:٣١] فقال: هذه الفاكهة فما الأب؟ ثم قال: ما أُمرنا بهذا». إلىٰ غير ذلك مما يدل علىٰ أنه ليس كل عمل يُبث ويُنشر وإن كان حقًّا.

قال: «وقد أخبر مالك عن نفسه أنه عنده أحاديث وعلمًا ما تكلَّم بها ولا حدَّث بها، وكان يكره الكلام فيما ليس تحته عمل، وأُخبر عمن تقدَّمه أنهم كانوا يكرهون ذلك، فتنبَّه لهذا المعنىٰ، هذا تأصيلٌ كبير، قال: وضابطه -واحفظوا هذا يا طلَّاب العلم، هذا قاله في الموافقات المجلد الخامس، يعني ضابط العلم الذي يُنشر-.

قال: «**وضابطه: أنك تعرض مسألتك علىٰ الشريعة فإن صحت في ميزانها فانظر في مآلها بالنسبة إلىٰ حال الزمان وأهله، فإن لم يؤدِّ ذكرها إلىٰ مفسدة فاعرضها في ذهنك علىٰ العقول، فإن قبلتها فلك أن تتكلم فيها: إما علىٰ العموم إن كانت مما تقبلها العقول علىٰ العموم، وإما علىٰ الخصوص إن كانت غير لائقةٍ بالعموم، وإن لم يكن لمسألتك هذا المساغ فالسكوت عنها هو الجاري علىٰ وفق المصلحة الشرعية العقلية**».

ليس الشأن أن تتكلَّم في كل فن، ما النتيجة من الكلام؟ لأن بعض الكلام لا

يُغيِّر شيئًا، وقد يُحدِث فتنةً، فليس من الدين أن تخوض فيه وإن كان حقًّا في ذاته.

قال الذهبي: «**وقد صحَّ أن أبا هريرة كتم حديثًا كثيرًا مما لا يحتاجه المسلم في دينه، وكان يقول: لو بثثته فيكم لقُطِع هذا البلعوم**» يقول: «**وقد صحَّ أن أبا هريرة كتم حديثًا كثيرًا مما لا يحتاجه المسلم في دينه**» قال الذهبي: «وليس هذا من باب كتمان العلم في شيء، فإن العلم الواجب يجب بثُّه ونشره، ويجبُ علىٰ الأمة حفظه، والعلم الذي في فضائل الأعمال مما يصح إسناده يتعيَّن نقله ويتأكَّد نشره، وينبغي للأمة نقله، والعلم المباح لا يجب بثُّه ولا ينبغي أن يدخل فيه إلا خواص العلماء.

قال: والعلم الذي يحرُم تعلُّمه ونشره علم الأوائل وإلاهيات الفلاسفة وبعض رياضتهم بل أكثره، وعلم السحر والسيمياء والكمياء والشعوذة والحِيَل، ونشر الأحاديث الموضوعة، وكثيرٌ من القصص الباطلة أو المنكرة، وسيرةُ البطَّال المختلقة وأمثال ذلك، ورسائل إخوان الصفا، وشعرٌ يُعرَّض فيه إلىٰ الجناب النبوي، فالعلوم الباطلة كثيرة جدًّا فالتُحذَر، ومن ابتُلي بالنظر فيها للفرجة والمعرفة من الأذكياء فليُقلِّل من ذلك، وليُطالعه وحده، وليستغفر الله، وليلتجئ إلىٰ التوحيد، والدعاء بالعافية في الدين.

وكذلك أحاديث كثيرة مكذوبة وردت في الصفات لا يَحلُّ بثُّها إلا التحذير من اعتقادها، وإن أمكن إعدامها فحسن، اللهم فاحفظ علينا إيماننا لا قوَّة إلا بالله» انتهىٰ كلام الذهبي.

ومن العلوم التي يُكَفُّ عنها إما علىٰ العموم وإما علىٰ الخصوص: الكلامُ الذي يُفرِّق الجماعة من أهل السنَّة، والخلاف فيه يسع فيُشغَل العامة بما ليس لهم فيه أمر، ويُجعَل علامةً للموالاة، ويُوالىٰ ويُعادىٰ عليه، قال ابن تيمية في جواب مسألة رؤية الكفار ربهم في الآخرة حيث حصل فيها خلاف بين أهل البحرين في زمانه، وانقسموا فبدَّع بعضهم بعضًا، فقال: وهنا آدابٌ يجب مراعاتها:

منها: أن من سكت عن الكلام في هذه المسألة ولم يَدعُ إلىٰ شيءٍ فإنه لا يحل هجره، وإن كان يعتقد أحد الطرفين -يعني أنه مخطئ- فإن البدع التي هي أعظم منها لا يُهجر فيها إلا الداعية دون الساكت، فهذه أولىٰ.

ومن ذلك: أنه لا ينبغي لأهل العلم أن يجعلوا هذه المسألة محنة وشعارًا يفضلون بها بين إخوانهم وأضدادهم، فإن مثل هذا مما يكرهه الله ورسوله.

وكذلك لا يفاتحوا فيها عوام المسلمين الذين هم في عافيةٍ وسلامٍ عن الفتن».

لأن بعض الناس تحدث فتنة في المغرب يجرُّها في إلىٰ بلاده، تحدث فتنة في المشرق يُشعلها في بلاده، أنت في عافية والناس بحاجة إلىٰ تعليم العلم النافع الذي يُقرِّب إلىٰ الله، فلا تشغلهم بالفتن فينقطعوا عن الخير.

قال: «**ولكن إذا سُئل الرجل عنها أو رأىٰ من هو أهل لتعريفه ذلك، ألقىٰ إليه مما عنده من العلم ما يرجو النفع به، قال: والخير كلُ الخير في اتباع السلف الصالح، والاستكثار من معرفة حديث رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، والتفقُّه فيه، والاعتصام بحبل الله، وملازمة ما يدعو إلىٰ الجماعة والألفة، ومجانبة ما يدعو إلىٰ الخلاف والفرقة، إلا أن يكون أمرًا بيِّنًا قد أمر الله ورسوله فيه بأمرٍ من المجانبة فعلىٰ الرأس والعين**»، وأما ما يسع فيه الخلاف لا يجوز لك أن تمتحن فيه الناس وتوالي وتُعادي عليه وتهجر، هذا من الفتن.

الوقفةُ الخامسة:

عن خلف بن عمر قال: «**سمعتُ مالكًا يقول: مَا أَجَبْتُ فِي الْفَتْوَىٰ حَتَّىٰ سَأَلْتُ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنِّي: هَلْ تَرَانِي مَوْضِعًا لِذَلِكَ؟ سَأَلْتُ رَبِيعَةَ، وَسَأَلْتُ يَحْيَىٰ بْنَ سَعِيدٍ، فَأَمَرَانِي بِذَلِكَ، فقلت: فَلَوْ نَهَوْكَ؟ قَالَ: كُنْت أَنْتَهِي**» لا ينبغي للرجل أن يبذل نفسه حتىٰ يسأل من هو أعلم منه، وهذا ضابطٌ في العلم عظيم.

قال أبو عاصمٍ النبيل: «**قال زُفَر: مَن قعد قبل وقته ذل**».

وقال ابن وهب عن مالك: «**كنت آتي نافعًا وأنا غلام حديث السن فينزل ويُحدِّثني، وكان يجلس بعد الصبح في المسجد لا يكاد يأتيه أحد، فإذا طلعت الشمس خرج**»، وفي روايةٍ: «**كنت آتي نافعًا وأنا غلام حديث السن مع غلامٍ لي، فينزل من درجه فيقف معي ويُحدِّثني، وكان يجلس بعد الصبح في المسجد فلا يكاد يأتيه أحد**».

وهذا فيه أن ليس الشأن في كثرة الأتباع فيغتر الإنسان بالمتابعين وتصفيق الجماهير له، الشأن في اتباع السنَّة والحق، إذا كان همُّك الجمع وكثرة الحضور فراجع قلبك، يأتي النبي وليس معه أحد، ويأتي النبي ومعه الرجل والرجلان.

قال الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**مات عطاء بن أبي رباح يوم مات وهو أرضىٰ أهل الأرض عند الناس، ما كان يشهد مجلسه إلا تسعةٌ أو ثمانية**».

وقال ابن وهب: «**سمعتُ مالكًا يقول: حقٌّ علىٰ مَن طلب العلم أن يكون له وقار وسكينة وخشية، والعلمُ حسنٌ لمن رُزِق خيره، وهو قسمٌ من الله تعالىٰ، فلا**

تُمكِّن الناس من نفسك، فإن من سعادة المرء أن يوفَّق للخير، وإن من شقوة المرء ألا يزال يُخطئ، وذلٌّ وإهانةٌ للعلم أن يتكلَّم الرجل بالعلم عند مَن لا يُطيقه، أو عند من لا يُطيعه».

وقال القعنبي: **«سمعت مالكًا يقول: كان الرجل يختلف إلىٰ الرجل ثلاثين سنة يتعلَّم منه».**

وقال عبد الله بن نافع: **«جالست مالكًا خمسًا وثلاثين سنة».**

وقال ابن وهب: **«لو شئت أن أملأ ألواحي من قول مالك: لا أدري لفعلت».**

وقال هيثم بن جميل: **«سمعت مالكًا سُئل عن ثمانٍ وأربعين مسألة فأجاب في اثنتين وثلاثين منها بلا أدري»** علىٰ كَم أجاب؟ ست عشرة، هذا مالك تُضرب له آباط الإبل، ويخرج الإنسان في فضائية فلا يكاد يرد مسألة، وإذا قال: لا أدري ظنَّ في نفسه أن جاههُ سيسقط، وأن الناس يتهمونه بالجهل، الرفعة عند الله ليست عند الناس.

وعن خالد بن خداش قال: **«قدمت علىٰ مالك بأربعين مسألة فما أجابني منها إلا في خمس مسائل».**

وعن أحمد بن سنان قال: **«سمعت عبد الرحمن بن مهدي قال: كنا عند مالك فجاءه رجل فقال: جئتك من مسيرة ستة أشهر حمَّلني أهل بلادي مسألة، قال: سَلْ عنها، فسأل عنه فقال له: لا أُحسِن، فقال: فأي شيءٍ أقول لأهل بلادي؟ ماذا يقول؟ بماذا يرد عليهم؟ قال: تقول: قال مالك: لا أُحسِن».**

وقال عبد الرحمن بن مهدي: **«جاء رجل إلىٰ مالك يسأله عن شيء أيامًا ما يُجيبه، فقال: يا أبا عبد الرحمن، إني أُريد الخروج -أي إلىٰ بلدي مسافر- وقد**

طال التردُّد إليك، فأطرق طويلًا ثم رفع رأسه فقال: ما شاء الله يا هذا، إني إنما أتكلَّم بما أحتسب فيه الخير، ولست أُحسِنُ مسألتك هذه».

وسُئل عن مسألةٍ فقال: لا أدري، فقيل له: إنها مسألةٌ خفيفة سهلة فغضب رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقال: **«ليس في العلم شيءٌ خفيف، ألم تسمع قوله -جلَّ ثناؤه-: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾** [المزمل:٥] **فالعلم كله ثقيل وخاصةً ما يُسأل عنه يوم القيامة».**

وكان مالك يقول: **«من أجاب في مسألةٍ فينبغي قبل أن يُجيب أن يعرض نفسه علىٰ الجنة أو النار وكيف يكون خَلاصَهُ في الآخرة».**

وكان يقول: **«كان أصحاب رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **تصعب عليهم المسائل، ولا يُجيب أحدهم في مسألةٍ حتىٰ يأخذ رأي صاحبهِ مع ما رُزقوا من السداد والتوفيق مع الطهارة، فكيف بنا الذين غطَّت الخطايا والذنوب قلوبنا؟!».**

وهذا درسٌ عظيم، وتربية كبيرة، وقد أخذَ مالك هذا الأمر عن شيوخه، وفيه دلالة علىٰ ما كان يُربِّي العلماء به طلَّابه.

فعن مالك أنه سمع عبد الله بن يزيد بن هرمز يقول: **«ينبغي للعالِم أن يُورِّث جلساءه قول: لا أدري حتىٰ يكونَ ذلك أصلًا يفزعون إليه»** الأصل أنك لا تدري.

وقال ابن عبد البر: **«صحَّ عن أبي الدرداء أن لا أدري نصف العلم».**

قال مالك: **«أخبرني رجل أنه دخل علىٰ ربيعة فوجده يبكي، ربيعة الرأي فقال: ما يُبكيك؟ وارتاع لبكائه، فقال: أمصيبةٌ حلَّت عليك؟ قال: لا، ولكن استُفتي مَن لا علم له وظهر في الإسلامِ أمرٌ عظيم».**

وقال ربيعه: **«لبعض من يُفتي ها هنا أحق بالحبسِ من السرَّاق».**

وقال ابن وهب: **«حدَّثني مالك عن عبد الله بن يزيد بن هرمز قال: إني لأحبُّ**

أن يكون من بقايا العالم بعده لا أدري ليأخذ بذلك من بعده».

وقال ابن وهب: **«حدَّثنا مالك أنه دخل يومًا علىٰ عبد الله بن يزيد بن هرمز فوجده جالسًا علىٰ سرير وهو مُخلًّىٰ ليس عنده أحد، فذكر شرائع الإسلام وما انتُقص منه، وما يُخاف من ضيعته وإن دموعه لتنسكب».**

وكان ابن هرمز يقول: **«إني لأكره للرجل أن يحوط رأي نفسه كما تُحاط السنَّة»** السنَّة معصومة ولكن رأيك قد يُصيب وقد يُخطئ، فلا تُعظِّم قولك وتجعله كالقرآن المنزَّل.

قال ابن القيم: **«وقِيلَ لسحنون: إنك تُسأل عن المسألة لو سُئل عنها أحد من أصحابك لأجاب فيها، فتتوقَّف فيها، فقال: إن فتنة الجواب الصواب أشد من فتنة الماء».**

وقال بعض العلماء ابن القيم: **«قلَّ من حرص علىٰ الفتوىٰ وسابق إليها وثابر عليها إلا قلَّ توفيقه، واضطرب في أمرٍ وإن كان كارهًا لذلك غير مختارٍ له ما وجد مندوحةً عنه وقدر أن يُحيل في الأمر فيه إلىٰ غيره كانت المعونة له من الله أكثر، والصلاح في جوابه وفتاويه أغلب».**

وقال بشر الحافي: **«مَن أحبَّ أن يُسأل فليس بأهلٍ أن يُسأل».**

وذكر أبو عمر بن عبد البر عن ابن عُيينة وسحنون أنهما قالا: **«أجسر الناس علىٰ الفُتيا أقلهم علمًا».**

وقال عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ: **«أدركت مئةً وعشرين من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ يُسأل أحدهم المسألة فيرد هذا إلىٰ هذا، وهذا إلىٰ هذا حتىٰ ترجع إلىٰ الأول ما منهم من أحد إلا ودَّ أن أخاهُ كفاه الفُتيا».**

وقال ابن مسعود: **«من أفتىٰ الناس في كل ما يستفتونه فهو مجنون»،**

وهكذا روي عن ابن عباس.

قال حُصين الأسدي: **«إن أحدكم ليُفتي في المسألة لو وردت علىٰ عمر بن الخطاب لجمع لها أهل بدر»**.

وقال الحاكم: **«سمعتُ أبا عبد الله الصفَّار يقول: سمعت عبد الله بن أحمد يقول، سمعت أبي يقول، سمعت الشافعي يقول، سمعت مالك بن أنس يقول، سمعت محمد بن عجلان يقول: إذا أخطأ العالم لا أدري أُصيبت مقاتله»**. هذه السلسلة يُربِّي العلماء طلَّابهم عليها، هذا أئمة الدين، إذا أخطأ العالم لا أدري أُصيبت مقاتله، سَيهلِك.

وقال إسماعيل بن أبي أويس: **«سألت خالي مالكًا عن مسألة فقال لي: قِرْ، يعني اجلس استريح، ثم توضأ ثم جلس علىٰ السرير، ثم قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، وكان لا يُفتي حتىٰ يقولها»** الحمد لله رب العالمين.

قال ابن وهب: **«سمعت مالكًا يقول: ما تعلَّمت العلم إلا لنفسي، وما تعلمت ليحتاج الناس إليّ، وكذلك كان الناس»** لا تتعلَّم لتُرفَع عند الناس، إنما تعلَّم لتنفع نفسك، وتصل لربك بطريقٍ يرضىٰ به عنك، فالعلم ما نفع وكسر ليس ما أورث غرورًا وعُجبًا في النفس.

قال أبو ثور: **«سمعت الشافعي يقول: ينبغي للفقيه أن يضع التراب علىٰ رأسه تواضعًا لله وشكرًا له»** وأولىٰ بالتواضع وأولىٰ بالشكر، فنعمة العلم عظيمة.

قال ابن وهب عن مالك: **«إن الرجل إذا ذهب يمدح نفسه ذهب بهاؤه»**.

وقال ابن وهب: **«ما نقلنا من أدب مالك أكثر مما تعلَّمنا من علمه»**.

الوقفة السادسة:

قال ابن وهب: «**قيل لأخت مالك: ما كان شغل مالك في بيته؟ -سُئلت أخت مالك- قالت: المصحف**»، التلاوة.

وعن ابن مبارك قال: «**ما رأيت أحدًا ارتفع مثل مالك، ليس له كثير صلاةٍ ولا صيام إلا أن تكون له سريرة**».

قال الذهبي معلِّقًا: «**ما كان عليه من العلم ونشره أفضل من نوافل الصوم والصلاة لمن أراد به الله**».

وعن مالك قال: «**كان عمر بن عبد العزيز إذا دخل منزله خدم نفسه حتىٰ إن كانت المائدة مغطَّاة كشفها وقدَّمها إليه**»، أي إلىٰ نفسه، يُريد بذلك أن يُصيب من خدمة نفسه، وهكذا من يدَّعي اتباع السنَّة والمشي علىٰ طريقة السلف، فالنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان يخدم نفسه فلا يكون الإنسان في بيته جبَّارًا أمَّرارًا نهاءً، لا يكاد يعمل عمل ولا يخدمُ خدمة، لا، إنما من التواضع أن يخدم الإنسان في بيته، وأن يُعاون أهله، فالنبي كان يخسف نعله ويحلب شاته ولكم فيه أسوةٌ حسنة.

الوقفةُ السابعة:

عن عبد الرزاق قال: **«سأل سندلٌ مالكًا عن مسألة فأجابه، فقال: أنت من الناس، أحيانًا تُخطئ وأحيانًا لا تصيب ما الفرق بينهم؟ قال: أنت من الناس، أحيانًا تُخطئ وأحيانًا لا تصيب تُخطئ ولا تصيب واحدة، قال: صدقت هكذا الناس»** هذا الرجل بدا كالمستهزئ به ومالك ماذا فهِم، أحيانًا أُخطئ وأحيانًا أُصيب.

فقيل لمالك: **«لم تدرِ ما قال لك؟ ففطن لها ثم قال: عهدت العلماء ولا يتكلَّمون بمثل هذا، إنما أجبته علىٰ جواب الناس»** وهذا فيه أن للعلماء سمتٌ لا يُخرَج عنه، وأن العالم لا ينزل إلىٰ مرتبة السفهاء ويخوض مع الخائضين كما قال مالك مما تقدَّم: **«حقٌّ علىٰ من طلب العلم أن يكون له وقار وسكينة وخشية»** فلا ينزل بعمله إلىٰ مستوىٰ السفهاء، فالعلم له مهابة وحُرمة، ووقار وسكينة وخشية.

قال ابن عقيل: **«عصمني الله في شبابي بأنواعٍ من العصمة، وقصر محبتي علىٰ العلم، قال: وما خالطتُ لعَّابًا قط، ولا عاشرت إلا أمثالي من طلبة العلم، وأنا في عشر الثمانين أجد من الحرص علىٰ العلم أشد مما كنت أجده وأنا ابن عشرين: «احْفَظْ اللهَ يَحْفَظْكَ»** [1]**»**.

قال الضحَّاك: **«أدركت الناس وهم يتعلَّمون الورع، وهم اليوم يتعلمون الكلام»**.

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٤ / ٢٨٤) برقم: (٢٥١٦).

قال ابن الجوزي: «**قال أبو حامد الطوسي: متىٰ كان الواعظُ شابًّا، متزيِّنًا للنساء في ثيابه وهيئته، كثيرَ الأشعار والحركات والإشارات، ويحضر مجلسه النساء، فيُحذَّر منه، وهذا منكرٌ يجب منعه فإن الفساد فيه أكثر من الصلاح، ولا ينبغي أن يعِظ إلا من ظاهره الورع، وهيئته السكينة والوقار، وزيُّه زي الصالحين**».

ذهبتَ تُعلِّم العلم لا تستعرض بثيابك وزينتك وحركاتك، هذا ليس شأن من يريد الله عَزَّوَجَلَّ وتبليغَ دينه ونشر سنَّة نبيِّه.

الوقفةُ الثامنة:

عن عبد المتعال بن صالح من أصحاب مالك قال: «**قيل لمالك: إنك تدخل علىٰ السلطان وهم يظلمون ويجورون، فقال: يرحمك الله فأين المُكلِّمُ بالحق؟**»

فمخالطة السلطان والناس لأجل النصيحة هذا هديٌ للعلماء وسنَّةٌ ماضية.

فعن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**خَمْسٌ مَنْ فَعَلَ وَاحِدَةً مِنْهُنَّ كَانَ ضَامِنًا عَلَىٰ اللهِ: مَنْ عَادَ مَرِيضًا، أَوْ خَرَجَ مَعَ جَنَازَةٍ، أَوْ خَرَجَ غَازِيًا، أَوْ دَخَلَ عَلَىٰ إِمَامِهِ يُرِيدُ تَعْزِيرَهُ وَتَوْقِيرَهُ، أَوْ قَعَدَ فِي بَيْتِهِ فَسَلِمَ النَّاسُ مِنْهُ وَسَلِمَ مِنَ النَّاسِ**»[٢] رواه الطبراني.

وقال يسار أبو الحكم: «**خرج رهطٌ من القراء، منهم مِعضد، وعمر بن عتبة، حتىٰ بنوا مسجدًا بالنخيلة قريبًا من الكوفة، فوضعوا جِرارًا من ماء، وجمعوا أكوامًا من الحصباء للتسبيح، ثم أقاموا في مسجدهم يتعبدون، وتركوا الناس، فخرج إليهم ابن مسعود، فقالوا: مرحبًا بأبي عبد الرحمن! انزل. فقال: والله ما**

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٠ / ٣٧) برقم: (٥٤).

أنا بنازل حتىٰ يُهدَم مسجد الخبال هذا فهدموه، ثم قال لهم: والله إنكم لتُمسكون بذَنَبِ ضلالة، أو أنتم أهدىٰ ممن كان قبلكم؟ أرأيتم لو أن الناس كلهم صنعوا ما صنعتم -يعني أصبحوا دراويش، يبتعدون عن الناس في المساجد ويُسبِّحون ولا يُعلِّمون الناس ويُفقِّهونهم في الدين-، من كان يجمعهم لصلاتهم في مساجدهم، ولعيادة مرضاهم، ولدفن موتاهم؟! فردهم إلىٰ الناس».

الوقفةُ التاسعة:

قال مُطرِّف بن عبد الله: «**قال لي مالك: ما يقول الناس فيَّ؟ قلت: أما الصديق فيُثني، وأما العدو فيقع، فقال: ما زال الناس كذلك، ولكن نعوذ بالله من تتابع الألسنة كلها**». هذا مالك، منهم من يُثني عليه، ومنهم من يقع فيه، إذا لم يسلَم الأئمة فلن يسلم من دونهم، ولكن الواجب علىٰ الإنسان أن يهتم بنفسه، وأن يتهمها علىٰ تقصيرها، وإن جاءه نقضٌ من أحد ردَّ الأمر إلىٰ ذنبه، ثم راجع حاله ونظر: إن وجد عيبًا أصلحه ولا يحتقر أحدًا، لأن بعض الناس يقول إذا تكلَّموا فيه وبيَّنوا عواره قال: إنما تُرمىٰ شجرًا مثمرة، هذا يُزكِّي نفسه، راجع قلبك ونفسك، إن كان ثمَّ خلل فأصلحه واشكر من أسدىٰ إليك المعروف وبيَّن لك العيب. وإن لم تجد خللًا وشاورت العلماء فاحمد الله علىٰ السلامة واحتسب الأجر عند ربك.

هذا هو الميزان.

الوقفةُ العاشرة: محنته رَحِمَهُ ٱللَّهُ

قال الفضل بن زياد: «**سألت أحمد ما الذي ضرب مالك أو مَن الذي ضرب مالك؟ قال: ضربه بعض الولاة في طلاق المُكرَه، كان لا يُجيزه فضربه لذلك**»، أي مالك يقول: طلاق المُكرَه ليس بشيء.

قال مالك: «**ضُرِبت فيما ضُرِب فيه سعيد بن المسيِّب، ومحمد بن المنكدر، وربيعة، ولا خير فيمن لا يؤذىٰ في هذا الأمر**». إذا كنت علىٰ السنَّة لا بد أن يأتيك بلاء، لن تستقيم لك طريقة.

سُئل الشافعي: «**أيهما خيرٌ للمرء، أن يُمكَّن أو يُبتلَىٰ؟ فقال: لن يُمكَّن حتىٰ يُبتلىٰ**» هذه سنَّة الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٢-٣].

وعن الليث بن سعد قال: «**إني لأرجو أن يرفعه الله بكل سوطٍ درجةً في الجنة**».

قال مصعب بن عبد الله: «**قال الأصمعي: ضربه جعفر ثم بعدُ مشيت بينهما حتىٰ جعله في حِل**» وهذا كان شأن العلماء الأتقياء.

قال الإمام أحمد بعد محنته: «**كل من ذكرني ففي حِل إلا مبتدعًا، وقد جعلت أبا إسحاق -يعني المعتصم- في حِل، ورأيت الله يقول: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾** [النور:٢٢] **وأمر النبي** عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ **أبا بكر بالعفو في قصة**

مِسطح، قال أبو عبد الله: ما ينفعك أن يُعذِّب الله أخاك المسلم بسببك». النبي ما انتقم لنفسه قط، إذا تكلَّم عليك أحد، إن كان بحق فاستغفر وأصلح العيب، وإن كان بباطل فاحمد الله علىٰ السلامة، لا تنتقم لنفسك، ليس هذا من هدي العلماء في شيء.

قال الذهبي في محنة مالك: **«هذا ثمرة المحنة المحمودة: أنها ترفع العبد عند المؤمنين، وبكل حال فهي بما كسبت أيدينا، ويعفو الله عن كثير، ومن يُرِد الله به خيرًا يُصِب منه، وقال تعالىٰ:** ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمد:٣١] **»قال: «وأنزل الله تعالىٰ في وقعة أحد قوله:** ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٥]، **وقال:** ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورىٰ:٣٠]**»،** قال: **« فالمؤمن إذا امتُحن صبر واتعظ واستغفر، ولم يتشاغل بذمِّ من انتقم منه، فالله حكمٌ مقسط، ثم يحمد الله علىٰ سلامة دينه، ويعلم أن عقوبة الدنيا أهون وخيرٌ له».**

وفاتهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ

توفي مالكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة تسعٍ وسبعين ومئة، وقد تواتر ذلك في شهر ربيع الأول، وله خمسٌ وثمانون سنة، ودُفِن في البقيع رَحِمَهُ ٱللَّهُ رحمةً واسعة.

قال إسماعيل بن أويس بن أبي أويس: **«مرض مالكٌ فسألت بعض أهلنا عما قال عند الموت، قالوا: تشهَّد، ثم قال: لله الأمر من قبل ومن بعد»**.

قال ابن عُيينة: **«ما ترك مالكٌ علىٰ ظهر الأرض مثله»**.

هذا أيها الأفاضل درٌر ونفائس ذكرها العلماء في فضائلِ هذا الإمام وسيرته، وإنما نقلتها لكم نقلًا لتعرفوا ما الذي خلَّد ذِكره ورفع شأنه، وكيف السبيل في سلوك هديهم وطريقتهم، والأمة قد أجمعت علىٰ علو مكانتهم، ومن أقوال أهل السنَّة المعتبرة: أن من شهد له المسلمون بالخير والجنة كان من أهلها، فالناس شهداء الله في أرضه وهؤلاء هم تحتَ التراب ولكنهم أحياء بما خلَّدوا من علمٍ نافع، وذِكرٍ طيِّب، فخلَّد الله ذِكرهم في الآخرين، وجعلهم لسان صدقٍ يدعو لهم في كل حين.

فنسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يُحيينا علىٰ طريقتهم، علىٰ سنَّةِ نبينا، وأن يحشرنا في زمرتهم، وأن يُدخلنا جنَّته، ويرفع لنا ولهم منازله، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه، كما أسأله سبحانه أن يحفظ بلادنا وأن يقيها شرَّ الأشرار وكيد الفُجَّار، وأن يرفعها ويزيد في مكانتها، وأن يملأها أمنًا واستقرارًا وسلامًا ورحمة، وأن يوفِّق

ولاة أمورها، وأن يُعينها علىٰ كل خير، ويُوفقهم لما يُرضيه عنهم، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه، وجزاكم الله خيرًا.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك

حقوق الطبع محفوظة

شبكة بينونة للعلوم الشرعية